الفصل الثانى
قصيدة إقبال فى صقلية
نظمها شعرا الشاعر العربى السَّكندرى
عبد العليم القبانى

لم يكن الشاعر الدكتور محمد إقبال – رحمه الله – مجرد شاعر برغم شهرته فى أوساط الثقافة الإسلامية بلقب (شاعر الإسلام)، وإنما تربع إقبال على عرش الفلسفة والقانون والعلوم السياسية بحكم دراسته حيث حصل على درجة علمية فى الفلسفة وعلم الاقتصاد من جامعة (كامبردج) فى لندن، وحصل على الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة ميونخ بألمانيا، وحصل على درجة علمية أخرى فى القانون من لندن، ولذا اكتسبت شخصية العلامة إقبال أبعادا متعددة ومتنوعة من الخصوبة والثراء والتفرد، ومن ثم كان لوجوده فى مملكة الأدب وعالم الشعر حضور متميز ومذاق خاص، وتحقق لشعره فى مجال الإبداع آفاق من العمق والجمال والتأثير والقبول ما لم يتحقَّقَ لغيره من الشعراء، ولذا نجد أنفسنا مع إقبال أمام شاعر فيلسوف مثقف ورجل دولة وسياسة وعابد أواه فياض المشاعر.

ولم يكن إقبال من الشعراء الذين (يتبعهم الغاوون)، وإنما كان من الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وحملوا هموم أمتهم الإسلامية من المحيط إلى المحيط واستجاب لما دعا إليه النبى – صلوات الله عليه وآله وسلم – للترفع عن العصبية الجاهلية من نسب وحسب ووطن وقومية عنصرية وارتقى إلى ما دعا إليه الإسلام لتأكيد الأخوة الإسلامية حيث قال تعالى : – ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات : ١٠]، وقال – تبارك وتعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وقال تعالى – فى تأكيد وحدة المؤمنين بدين الله المصدقين

برسالاته وجميع وحيه ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ولذا رأينا إقبال يحمل الهَمَّ الإسلامى العام وينقب عن أمجاد المسلمين فى صفحات التاريخ وآثار حضارتهم ويتأمل واقعهم فى الحاضر ويبكى واقعهم ويستحثهم فى شعره للنهوض واليقظة على أسس من هدى الإسلام العظيم واتباع مبادئ القرآن الكريم والتأسى بسير القواد المصلحين من الأبطال المسلمين.

– يقول – رحمه الله – فى التعبير عن مذهبه الشعرى: «إنى هائم فى شعرى وراء الشعلة التى ملأت العالم أمس نورا وحرارة، وقد قضيت حياتى فى البحث عن تلك الأمجاد التى مضت وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا فى غيابهم الماضى، ولا عجب إذا كان شعرى يملأ القلوب حماسة وإيمانا وكان وقعه فى النفس كبيرا وعميقا، فقد سالت فى شعرى دموعى ودمائى، وفاضت فيه مهجتى ودعائى».

– وفى تأكيد آفاق إبداعه الشعرى الرحبة التى لا تعرف الحدود والثغور يقول: «إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجا فى بحره المتلاطم، عصوره عجيبة، وأخباره غريبة، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ، هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق وفى كل مكان فارس ميدان الشوق، شرابه رحيق دائما، سيفه ماض فى كل معركة». ويقول – رحمه الله –: «المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى، ليس وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند، إنما وطنى العالم كله».

وقد اهتم إقبال بقضايا أمته الإسلامية بداية من معاناة مسلمى الهند بنى وطنه حيث عاين مخاض استقلال الهند عن انجلترا وتحررها من الاحتلال الانجليزى وتنبه لخطورة ما دعا إليه حزب المؤتمر الهندى لإقامة الدولة الديموقراطية فى الهند لتستوعب كل أبناء الأمة الهندية على مختلف طوائفهم وثقافاتهم، ورأى أن هذا التوجه الهندى يمثل خطرا على المسلمين الذين لا تتعدى نسبتهم العشرة بالمائة من جملة سكان الهند ودعا فى

خطابه فى الاحتفال السنوى لحزب الرابطة الإسلامية فى مدينة (الله أباد) فى ديسمبر ١٩٣٠م لإقامة دولة خاصة للمسلمين الهنود ورسم حدودها الجغرافية لتضم الأقاليم ذات الأقلية المسلمة فى مقاطعات البنجاب والحدود الشمالية والسند وبلوخستان وقال بهذا الشأن فى مرضه الأخير: «إن أمة لا تملك أرضا تستند إليها لا دين لها، ولا حضارة، وإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة، وإن باكستان هى الحل الوحيد للمشاكل التى يواجهها المسلمون فى هذه القارة الهندية، وهى الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية». وقد تحقق الحلم حيث قامت دولة باكستان فى الحادى عشر من شوال سنة ١٣٦٦ هـ الموافق الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٩٤٧ فكانت من أجل النعم الربانية على مسلمى الهند.

– وتابع إقبال معاناة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وعبر عن آلامهم وأمالهم فكان – بحق – قيثارة الإسلام فى القرن العشرين. واحتل اهتمامه بفلسطين والأخطار التى تعرضت لها بفعل المؤامرات الصليبية والصهيونية مكانة بارزة فى بؤرة اهتمامه وتنبه – رحمه الله – لكل ما يحاك ضد فلسطين بليل فشارك فى جميع المؤتمرات التى عقدت لبحث مسألة فلسطين وتسلل عصابات الصهيونية اليها، وقد دعاه الحاج أمين الحسينى المجاهد الفلسطينى لحضور جلسات المؤتمر الإسلامى الذى عقد بالقدس فى السادس من ديسمبر ١٩٣١ م ممثلا لمسلمى الهند وكان مما قاله فى كلمته: «إننى على إيمان ويقين أن مستقبل العرب مرتبط بالإسلام، وبالإسلام فحسب، ولا بد من توحيد واتحاد صفوف المسلمين فى المعمورة، لأن مصير المسلمين عربا وعجما مصير واحد، لست خائفا من أعداء الإسلام، وإنما أخشى من التفكك والتفرقة والانقسام فى صفوف المسلمين».

– وخلال أسفاره الكثيرة لعواصم الغرب وجزائر البحر الأبيض المتوسط – البحيرة الإسلامية سابقا – مرَّ بكثير من ثغور الإسلام ومراكز الإشعاع الحضارى

تأمل خلالها أمجاد العرب والمسلمين الضائعة فى الأندلس والبحر المتوسط وتوقف بمصر خلال سفره لحضور مؤتمر المائدة المستديرة لبحث المسألة الهندية واستقلال الهند مع الحكومة البريطانية سنة ١٩٣١ م، وقد ألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين التقى خلالها جمعا من الدعاة والمثقفين المصريين، وزار أسبانيا – الأندلس سابقا – سنة ١٩٣٢ م وأمَّ جامع قرطبة، واسترجع مجد العرب المسلمين فى الأندلس وبكى زوال دولة امتدت تشع نورا وحضارة ثمانية قرون، وكان الفيلسوف إقبال أول مسلم يسمح له بالصلاة فى جامع قرطبة مُذ خرج العرب المسلمون من الأندلس سنة ١٤٩٢م أى بعد مرور أربعين وأربعمائة عام (٤٤٠ عاما).

– وقد مر شاعرنا بجزيرة (صقلية) من جزائر البحر المتوسط إبان عودته من لندن إلى بلاده فتذكر حضارة المسلمين بها ونظم فيها شعرا مؤثرا منه قصيدته موضوع العنوان لهذه المقالة، والتى منها كما جاء فى الترجمة الشعرية الشهيرة لها:

١ – أعينى هذا أوان البكاء نشدتكما الله لا تبخلا
٢ – وما شئتما من دم فاسكبا سحائب دمع كقطر الندى
٣ – فإنى أرى يومنا من بعيد ويا لوعة القلب مما أرى
٤ – وللعرب كانت هنا دولة ومثوى حضارة أم القرى
٥ – عمالقة البيد خاضوا البحار فكانت لأسطولهم ملعبا
٦ – أعود إلى الهند مستعبرا بأنبل ذكري لمجد خلا
٧ – هنا قد بكيت وفى الهند أبكى وأبكى الصديق معا والعدا

وقد تفاعل مع عاطفة إقبال المتوهجة بمحبة الإسلام ورسالته وحضارته وأمجاد شعراء كثيرون يأتى فى مقدمتهم الشاعر الشيخ الصاوى على شعلان والعلامة الدكتور عبد الوهاب عزام ومن الأدباء العلامة أبو الحسن الندوى

والدكتور حسين مجيب المصرى وغيرهم ممن عرفوا فضل إقبال ومكانته فى الأدب العربى والإسلامى، ويبرز من بين شعراء العربية الموهوبين الشاعر عبد العليم القبانى الذى نظم غير قصيدة من وحى العلامة إقبال من بينها قصيدته (الفرار من المدينة) وهذه القصيدة التى عنونها بـ« (وقفة أمام صقلية – قصيدة لمحمد إقبال – نظمها بالعربية عبد العليم القبانى) وقد نُشِرَتْ بمجلة (الهلال) المصرية فبراير ١٩٧٦م كما نشرت بديوان أغنيات مهاجرة الذى صدر عن الهيئة العامة للكتاب بمصر.

– وتأتى قصيدة إقبال (وقفة أمام صقلية) عبر شاعرية القبانى إضافة مهمة لشاعرية إقبال الناطقة بلغة الضاد عبر الشعراء العرب، وتقف وراء نظم القبانى شخصية القبانى بحبها الكبير لثغر الاسكندرية الأثير لدى الشاعر ولدى عشاق الثغر الجميل من الشعراء والكتاب، ويقف وراءها تمكن القبانى من ناصية البيان بلغة الضاد فضلا عن عصاميته التى هى مضرب المثل فى عالم الشعراء، ويأتى قبل ذلك وبعده موهبة القبانى فى حقل القريض.

– وقد أبدع القبانى فى اختيار الألفاظ والعبارات التى تعبر عن عاطفة إقبال عند رؤية (صقلية) وبكاء أمجاد المسلمين واسترجاع ذكريات حضارتهم ومن ذلك (صقلية انداحت لمرآك أضلعى) و(عادت بى الذكرى حشودا) و(دوت هنا « الله أكبر » (فانثنت جيوش وولت كالقطيع المفزع) و(أضاءت بصحراء الحجاز) و« الذكريات تهدنى » فضلا عن إبرازه لعاطفة إقبال الإيمانية التى أثرت كثيرا على اختيار ألفاظه وعباراته وصوره وموسيقاه يقول الشاعر القبانى على لسان إقبال:

١ – « صقلية » انداحت لمرآك أضلعى وجفت على أعماقها فيك أدمعى
٢ – وعادت بى الذكرى حشودا تمردت على الصمت تخطو بى إلى كل موضع
٣ – هنا ألف تذكار، هنا ألف قصة هنا همسة التاريخ فى سمع من يعى
٤ – هنا يا جدار البحر، يا حضنه الذى تطاول والدنيا بمرأى ومسمعِ

٥ – توالت من الصحراء يوما شبولها فـمـا الموج فى تيـاره المتـدفع
٦ – ودوّت هنا «الله أكبر» فانثنت جـيـوش وولت كـالقطيع المفـزع
٧ – وأحنت حصون شامخات بروجها لديها وأهوت موقعا بعد موضع

– ويمضى مشيرا إلى أثر حضارة الإسلام فى حياة العرب فيقول:

٩ – أضاءت بصحراء الحجاز وأقبلت على هَدْي ذيّاك النداء الموقع
١٠ – فألقت بأوهام القرون وأطلعت سنا العلم من إيمانهـا المتـرفع
١١ – وأعلنت بناء الحق والعدل بعدما لوى الجهل أعصاب الزمان المروع
١٢ – فوا أسفا والذكريات تهدنى وأين الذى أبكى ... فيبكى أسىً معى

وسرعان ما يعود الشاعر إقبال إلى الحاضر المرير لأمة التوحيد بعدما حلق مع صقلية عبر آفاق بزوغ فجر الإسلام وانتصارات المسلمين وعبقرية حضارتهم الإيمانية فإذا شاعرنا أمام واقع أمته حزينا متحسرا يقول:

١٣ – «صقلية» انهارت صروح وأقفرت دروب، وأوفى مصرعٌ بعد مصرع
١٤ – وداست حمى الشرق الخطوب فهل ترى سيقوى عليها بعد طول التصدع؟
١٥ – فهل تذكرين الآن ما بى؟ وهل درت صخورك كم كانت مثاراً لأدمعى؟

– بيد أن شاعرنا الفيلسوف إقبال لا ييأس من روح الله ويرى بثاقب نظره وبفراسة المؤمن فجر بعث هذه الأمة التى يأبى الله لها أن تموت برغم أنها قد تمرض، وقد يبشر أعداؤها بقرب زوالها ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ولذا نرى شاعرنا يتجلد ويستحضر يقين المؤمن فى رعاية الله لهذه الأمة التى قد يعاقبها ويسلط عليها بذنوبها من لا يخافه ولا يرحمها إلا أن ذلك «تهذيب لها واستنهاض لطاقاتها الكامنة نحو اليقظة والنهضة والبعث لتضطلع بدورها فى هداية الإنسانية الحائرة من جديد يقول إقبال:

١٦ – على أننى ألزمت نفسى رشادها وعـدت بقلب مـستطار التطلُّع

١٧ – أرى لمحات الفجر فى غيهب الدجى وقـد تطفـر الآمـال بعـد التـمنُّع

وبعد فلا أرى منصفا محبا للفنون الجميلة إلا وقد عاش تجربة إقبال عبر نظم الشاعر عبد العليم القبانى وقد اتسمت بالصدق الشعورى وحرارة العاطفة وسمو الفكرة ونبل الغاية ووضوح المعنى وجمال التصوير والإحساس بالوجود المحيط بالشاعر وتشخيصه والتفاعل مع هموم الأمة تفاعلا يقظا يصف الألم لكنه يبشر بالأمل.

* * *